

الوافي في الوفيات

من قال إنَّك تقتلي صَبًّا غوى ... تاء ما هذي طباعك في الهَوَى .
لكنَّ حظوظُ قُسِّمَتْ في الناس .
وتقدِّم إليَّ بأنَّ أحمس الأبيات المذكورة فقلتُ :
يا من رأى كَلَّافي به فتعطَّفا ... وحنا وجاد بوصله وتلطَّفا .
كيف انخدعتَ وملتَ عن طرقِ الوفا ؟
أشمتَ بي الأعداءَ من بين الـورَى ... ومنعتَ عيني أن ترى طيفَ الكرى .
عجباً لحظَّي منك كيف تغَيَّرا .
إنَّي أعوذُ بمن قضى بصبايتي ... أن لا ترقَّ وترعوي لكآبتي .
أو أن ترى فيَّ المرادَ شوامتي .
أتساعدُ الأيامَ في جَور الذَّوى ... وتكون عوناً للصباة والجوى .
وتذيب صبري والتجلُّدَ والقوى ؟
وخمَّسها جماعةٌ من شعراء العصر ورُزقت حظًّا من سعادته وغدَّي بها المغنون . وكتبتُ
إليه من الشام وقد ورد عليَّ كتابه من القاهرة :
وافى الكتابُ كما أردتُ فعُدْتُ من ... إجلاله عندي أقومُ وأقعدُ .
ولكم لثمتُ الذَّرى في سجدةٍ ... وأطلتُ حتَّى قيل : هذا هدهُدُ .
فكتب الجواب على ذلك :
أهدى مشرَّ فُكِّ السليمانِيَّ ما ... يفنى الزمانُ وحسنُه لا ينفذُ .
وفهمتُ سجدةً هدهدٍ قد وافقتُ ... وطبتُ حتَّى قلتُ : فيه معبدُ .
وله جمعت كتابي الذي سميتُه المجاراة والمجازاة حسبما طلبه منِّي وجهَّزته إليه
وكتبتُ معه قصيدةً امتدحتُه بها وهي :
لك جفنٌ لو خالف الصَّبُّ أمْرَه° ... عاد بالدمع جفْنُه وهو أمْرَه° .
أيُّ عينٍ سوداءٍ قد تركتُ في ... صحنِ خدِّي من المدامع نُقْرَه° .
يا غزالاً فيه من الغصنِ مَيْلُ° ... وقضيباً فيه من الطَّيِّبِ زَفْرَه° .
أنا أغنى الأَنام فيك لأنَّي ... طالما نلتُ من محيِّاك بدْرَه° .
لك خدٌّ يُخالُ صفحةً بدرٍ ... كُسفتُ وِسْطَها من الخالِ زُهْرَه° .
وشدَّي كلما تذكَّرتُ منه ... نَشْرَه كلن لي من الدمع نُشْرَه° .
يا لذاك الجبينِ إذْ رحتُ منه ... وثيابي بالدمع في الشمسِ عُصْرَه° .

ولذاك الريق الذي مُدّ حالي ... كم تجرّعتُ مُرّاً منه مَرّاً .
ولذاك العذار إذْ زان خدّاً ... صار منه للصبّ ماءٌ وخُضْرَةٌ .
أترى رَقْمه بكفّ علاء ال ... دينٍ لمّا بدا وجرّد سَطْرَه .
قلمٌ في بنانه يجعل الطّير ... سَ مَحْيّاً وطُرفةً فيه غُرّهُ .
هي كفّ لو جفّت الأَرْضُ محلاً ... لم تعُز من يراعه غيرَ مَطْرَه .
لم يكن حارماً لمن حلب الرز ... قَ وإن جاءه حَمَاهُ المَعَرّهُ .
خلّ سمعي من قولك : ابن هلالٍ ... بدرُ هذا أتمّ في كلّ نَظْرَه .
ولأوضاعه حلاوةٌ معنّى ... طالما أرسلت من الجود قَطرَه .
ليس كتبٌ يخطّها قطّ كتباً ... بل رياضٌ قد أينعت كلّ زَهْرَه .
تصدرُ الكتبُ في الممالك عنه ... فتُسَرِّ القلوبُ منها وتَكْزِرَه .
فهو عند الوليّ أطواقٌ جيدٍ ... وهي عند العدوّ تقصد نَحْرَه .
وإذا ما أراد نظمَ قَريضٍ ... قلتُ : سحراً أدارَ أم كأسَ خَمْرَه .
بقوافٍ تمكّنتْ واطمأنّتْ ... لا كمن جرّها إلى البيتِ سُخْرَه .
أين لفظٌ يأتي كنسمةٍ روضٍ ... من مقالٍ يُلقي على القلبِ صَخْرَه .
ذاك في السمعِ دُرَّةٌ وأرى ذا ... في القفا مثلاً وفي الدالِ كَسْرَه .
وحسودٍ يقول : لا أرضَ هذا ... قلتُ : تيهاً يا أسودَ الوجهِ بَعْرَه .
أيّها السيّدُ المُمَجِّدُ حالي ... بك حالٍ وكان من قبلُ عَيْرَه .
إنّ هذا الكتابَ باسمك لَمّا ... صُغِّتْهُ عَظَمَ البريّةُ قَدْرَه .